

موانئ ساحل بلاد الشام وأهميتها الاقتصادية خلال فترة الحروب الصليبية في ضوء كتابات الجغرافيين والرحالة العرب والمسلمين والصادر الصليبية

م. د. قيس فتحي احمد *

تأريخ التقديم: ٢٠٢٠/٤/٢ تأريخ القبول: ٢٠٢٠/٥/١٠

المستخلص :

إن الموقع الجغرافي الحيوي لمدن ساحل بلاد الشام براً وبحراً وبما تمتلكه من ثروات اقتصادية مهمة قد مكنها من احتلال الصدارة في تجارة الشرق والغرب، لذلك لعبت مراكزها التجارية دوراً مهماً في النشاط الاقتصادي خلال تلك الفترة .

لقد كان لموقع بلاد الشام المتميز بين الشرق والغرب وامتدادها على الساحل الشرقي للبحر المتوسط ومجاورتها لأقاليم وحضارات عريقة أن جعل منها تلعب دوراً مؤثراً في التجارة لاسيما الخارجية منها بفضل ما تمتلكه من موانئ ذات مواقع متميزة مع كثرة الخيارات فجعل منها لذلك مصدراً للتجارة ومعبراً مهماً لنقل البضائع من الشرق إلى الغرب وبعكس ذلك.

وقد لعبت مدن موانئ حوض البحر المتوسط الشرقي خلال فترة الحروب الصليبية ذلك الدور الاقتصادي والتجاري البارز لوقوعها على الخط التجاري الساحلي مما أعطاهاميزة المتاجرة مع شواطئ البحر المتوسط الأخرى سواء الساحل الأوربي أو المغاربي أو المصري فكانت بحق عامل ازدهار لتجارة العالم جراء دورها الوسيط في التجارة.

المقدمة

إن الموقع الجغرافي الحيوي لمدن ساحل بلاد الشام براً وبحراً وبما تمتلكه من ثروات اقتصادية مهمة قد مكنها من احتلال الصدارة في تجارة الشرق والغرب، لذلك لعبت موانئها

* المديرية العامة لتربية نينوى/ وزارة التربية/ العراق.

التجارية دوراً مهماً في النشاط الاقتصادي خلال تلك الفترة^(١) فقد كانت بلاد الشام من أغنى مناطق العالم في مواردها وخيراتها مما انعكس ذلك على مجمل نشاطها الاقتصادي والتجاري ويكفي بان نستشهد بقول ابن شداد الذي يعطينا صورة واضحة لهذا النشاط الاقتصادي بالنسبة للعالم الإسلامي فهو يقول: (إذا كانت الدنيا في بلاء وقحط كان الشام في رخاء وعافية وإذا كان الشام في بلاء وقحط كانت فلسطين في رخاء وعافية)^(٢) وهذا مما عكس الموقع المتميز الذي وفر الرخاء الاقتصادي مما انعكس على أسواقها بان ازدهرت فيها التجارة وتتنوعت البضائع وزاد نشاطها الاقتصادي . ويمكن ان نستعرض ذلك النشاط الاقتصادي لمدينة موانئ الحوض الشرقي للبحر المتوسط أي بلاد الشام على النحو التالي.

المبحث الاول: النشاط الاقتصادي لموانئ مدن ساحل بلاد الشام:

لعبت موانئ الساحل الشرقي لبلاد الشام دوراً تجارياً واقتصادياً كبيراً وبخاصة ان علمنا تعدد المراكز التجارية فيها مما كان لها أكبر الأثر في زيادة النشاط التجاري والاقتصادي مع بلدان العالم الخارجي، وقد شكلت الموانئ التجارية الشامية الواقعة على ساحل البحر المتوسط أهم تلك المراكز بما تميزت به من قصر المسافة التي تفصلها عن البلدان الأخرى^(٣) ، فكانت طرق التجارة العالمية عبر الخليج العربي والبحر الأحمر تنتهي في موانئ بلاد الشام ، وبهذا سيطرت على التجارة الدولية^(٤) ، ولذلك كان لتلك الموانئ أهمية في جعل رافد التجارة من أهم الروافد الاقتصادية في البلاد الشامية^(٥) .

(١) الشلي، فيصل، بلاد الشام في ظل الدولة المملوكية الثانية، (دولة الجراكسة البرجية) ١٣٨١-١٥١٧م،

ط ١ ، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع ، (دمشق : ٢٠٠٨م)، ص ١٣٨، ١٣٧.

(٢) عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم (ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م)، الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام

والجزيرة ، دار الفكر ، (بيروت : ١٩٨٢)، ١٨٩/٢.

(٣) ضومط ، أنطوان خليل، الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري (١٢٩٠-١٤٢٢م) ،

دار الحديث ، (بيروت : ١٩٨٠) ، ص ٢٠١، ١٨١.

(٤) غوانمة، يوسف درويش، تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي ، دار الحياة للنشر والتوزيع ،

(الأردن - الزرقاء : ١٩٨٢م) ، ص ٩٠.

(٥) الدوري ، عبدالعزيز، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، ط ٢ ،

(بيروت : ١٩٧٨م) ، ص ١٠٨.

ومما زاد في أهميتها التجارية ، نشاطها كوسيط في التجارة العالمية الذي ساعدها في ذلك استغلالها لسواحلها البحرية التي ظهرت فيها المراكز التجارية الكبيرة والموانئ المشهورة ومنذ القدم^(١) لذا كانت أسواقها التجارية عامرة ودائمة الحركة وفيها مختلف البضائع وكان التجار يقصدونها ببضائعهم ، فبياع في اسواقها باليوم ما لبياع في غيرها في شهر^(٢)، واشتهرت المرافئ التجارية فيها بالحركة الدائمة للتبادل التجاري ما بين الشرق والغرب ناقلة البضائع والمواد شرقاً وغرباً دون توقف أو عارض يعيقها كما كان لها دوراً كبيراً في نقل الحجاج القاصدين بيت القدس وغيرها .

وكانت الأساطيل من السفن التجارية الغزبية تتجهز وتتطلق إلى الشرق بها شتى البضائع^(٣) والتي رغم ذلك لا تنافس بضائع الشرق لذا نجد التجار الايطاليين مثلاً، كانوا يعانون من قلة بضائع أوربا التي يجلبونها للبيع في ساحل الشام وغيره من اجل حصولهم على بضائع الشرق ، والمتاجرة مع التجار المسلمون فيتبادلون معهم بتلك البضائع في تلك الموانئ الساحلية^(٤) وقد استمر هذا المناخ التجاري الجيد حتى مع ظهور الكيانات الصليبية على الساحل الشرقي للبحر المتوسط ورغم المناخ السائد للحرب فان التجارة والعلاقات التجارية مع الغرب لم تتوقف لان متطلبات الحرب من اخشاب وغيره ذاتها كانت تعمل على استمرار التجارة^(٥)

كما إن مجرد إقامة الصليبيين في الشرق لم يكن قادراً على قلب أوضاع التجارة رأساً على عقب وبما إن البضائع كانت تصل إلى الموانئ الشامية فمن المؤكد أن سقوط طرابلس

(١) رانسيمان ،ستيفن ، تاريخ الحملات الصليبية ، ترجمة:نور الدين خليل ،مكتبة الشرق ،(القاهرة :١٩٩٨)، ٤١٢/٣ .

(٢) الادريسي، محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحسني (ت ٥٦٠هـ/١١٦٤م) ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ط١، عالم الكتب، (بيروت: ١٤٠٩هـ)، ص١٨ .

(٣) زاينوروف ، ميخائيل، الصليبيون في الشرق، ترجمة: الياس شاهين، دار التقدم،(موسكو:١٩٨٦)، ص١٤٨ .

(٤) رانسيمان، ستيفن، تاريخ الحملات الصليبية، ٤١٤/٣، ٤١٣ .

(٥) كاهين، كلود، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة:احمد الشيخ ،أسيا للنشر،(القاهرة :١٩٩٥)،ص١٩٢ .

وعكا وصور وغيرها بيد الصليبيين ومناخ الحرب أبان السنوات الأولى للقرن (الخامس للهجرة / الثاني عشر للميلاد) ومع إقامة حد فاصل بين أراضي المسلمين في الشام ومناطق الصليبيين كل هذه الأمور لم يكن بوسعها إلا أن تؤثر على حركة المرور التجارية في بدايتها،
لكان سرعان ما عادت الحركة الى طبيعتها لحاجة كلا الطرفين للتجارة^(١)

والمعلوم ان البضائع الشرقية كانت تنتهي ببغداد أو دمشق والتجار من هناك يقوموا بالتعاقد على أعمالهم وينقلون مشترياتهم على ظهور الجمال إلى إنطاكية وصور أو عكا وغيرها من موانئ الساحل الشامي وكانت التجار المسلمون والمسيحيون يغدون إلى الموانئ حيث يتبادلون البضائع بيعاً وشراءً ومنها تنتقل إلى أوروبا^(٢)

والملاحظة على التجارة ونشاطها في هذه الفترة إن تجار الغرب كان لهم امتيازات في العديد من المدن الساحلية التجارية فمثلاً التجار الايطاليين وغيرهم من التجار الأوربيين كان لهم في المدن الساحلية إحياء فيها بيوت سكنية ومستودعات وبها سوق وابرز التجار كانوا من جنوة ومن البندقية ومرسليا وورشلونة وغيرها^(٣) ومثال ذلك نجد مثلاً في منح الامتيازات للمدن الايطالية أن صلاح الدين الأيوبي رغم حربه مع الصليبيين ومعرفته بدور هذه المدن الداعم للصليبيين فإنه منح امتيازات تجارية لمدن ايطالية نظرا لحاجة صلاح الدين للخشب الضروري في بناء الأسطول البحري كما كانت له حاجة ملحة إلى الحديد لصنع الأسلحة وحاجته إلى هذه المواد اشد مما كان عليه في السابق بسبب الحرب ، ولم يكن بمقدوره أن يحصل عليه إلا بمنحه الامتيازات التي عن طريقها يكسر الحصار المفروض من البابوية على تجارة الحديد والخشب^(٤) والملاحظ أن هذه الامتيازات حصلت عليها تلك المدن من الجانبين الصليبي والمسلم على حدّ سواء ، وهنا لا بد من معرفة أسس ذلك النشاط الاقتصادي ومقوماته في المدن الشرقية لساحل البحر المتوسط وهي على النحو الآتي:

(١) كاهين، كلود ،الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية ، ص ١٤١.

(٢) بيري، هنري ، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة: عطية القوسي ،الهيئة المصرية العامة للكتاب،(مصر :١٩٩٦)، ص ١٧٥.

(٣) زابوروف، ميخائيل، الصليبيون في الشرق، ص ١٤٨.

(٤) كاهين، كلود ، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية ،ص ١٧٠، ١٩٢.

أولاً- النشاط الزراعي:

تشكل الزراعة المصدر الأساس للغذاء والثروة، فعليها يعيش معظم الناس على مر العصور وتشكل الحرفة الرئيسية لمعظم الأهالي، نظراً لما تدر من المال والثروة بفعل كثرة إنتاجها. وهذا ما ظهر واضحاً في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، التي عرفت أنواعاً عديدة من المحاصيل والتي تباينت زراعتها من منطقة الى أخرى تبعاً للظروف المناخية ونوع التربة (١) وكثرة المياه الجارية من الأنهار والعيون والأمطار الغزيرة .

وقد قسمت المحاصيل الزراعية على نوعين هما : المحاصيل الصيفية والمحاصيل الشتوية التي تنوعت ما بين القمح والشعير والشوفان والبقول والحمص والعدس والذرة والدخن والسمسم والأرز والحبّة السوداء والقطن والخضار والفواكه وغيرها (٢) ويمكن لنا تبيان ما اشتهرت به كل من تلك المدن الساحلية في إنتاجها الزراعي.

فمدينة نابلس وصفت بالخصب وكأنها قصر في بستان ، خصها الله تعالى بالشجرة المباركة وهي شجرة الزيتون، الذي يصدر منها الى أنحاء مدن الشام وخارجها لما يتميز به من جودة عالية فاقت غيرها من المدن ، فضلاً عن وجود البطيخ الاصفر الكثير الحلاوة (٣) كما عرفت قراها بكثرة الرمان (٤) وزراعة القمح ولكن بكميات ليست كبيرة (٥) اما مدينة عكا فتحيط بها بساتين كثيرة فيها أنواع عديدة من أشجار الفواكه التي زودت المدينة بثمارها (٦) فعرفت بكثرة الضياع والبساتين التي حولها (١) لذا وصفها الإدريسي

(١) البرازي ، نوري خليل وآخرون ، الجغرافية الزراعية ، دار المعرفة ، (بغداد : ١٩٨٠م)، ص ١٦.

(٢) النويري ،شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب ، نهاية الأرب في فنون الأدب ،تحقيق :مفيد قمحة وجماعة ، دار الكتب العلمية ،(بيروت : ٢٠٠٥) ، ٨/ ١٨٧، ١٨٨.

(٣) شيخ الربوة ، شمس الدين أبو عبدالله محمد أبي طالب الأنصاري (ت ٥٧٢٧هـ/١٣٢٧م)، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، مطبعة الأكاديمية الإمبراطورية ، (بترسبورغ : ١٨٦٥م)، ص ٢٠٠.

(٤) البغدادي، صفي الدين عبد المؤمن بن عبدالحق (ت ٥٧٣٩هـ/١٣٣٨م)، مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، ط ١ ، دار الجيل ،(بيروت : ١٩٩٢م) ، ٣/ ١٤٧١.

(19)Hutteroth And Kamal Abdul Fattah, Historcal Geography Of Palestine, Erlangen : 1977. P108-110

(٦) ابن جبير ،أبي الحسين محمد بن احمد ،رحلة بن جبير ،تحقيق :محمد مصطفى زيادة ، دار الكتاب اللبناني ،(بيروت:١٩٨٨)، ص ٢٥٦.

بقوله: (ومدينة عكا كبيرة واسعة الإرجاء كثيرة الضياع) ^(٢) ومن محاصيلها المهمة قصب السكر وقد وصف النويري عملية زراعته وطرق العناية به من الأمراض والفئران ومرحلة نضوجه ^(٣) وهناك الزيتون وقد أشار المقدسي إلى كثرة زراعته بقوله: (عكا مدينة خصبة فيها غابة زيتون) كما تكثر فيها الأعناب ^(٤) وكما اشتهرت بزراعة وإنتاج كميات كبيرة من محصول القطن ^(٥)

واشتهرت مدينة طرابلس بالخصب وكثرة الزراعة وتنوع ثمارها التي كانت تضاهي دمشق في بساطينها ^(٦) فقد جمعت في بساطينها من الفواكه ما لا يوجد في سائر الأقاليم كالحمضيات الكثيرة والمتنوعة وكذلك الجوز والموز ^(٧) وشجر الزيتون والكروم وضروب الغلاة الشيء الكثير ^(٨) وحول المدينة المزارع والبساتين وأشجار النارج والترنج والليمون والتمر ^(٩) وشجر الصنوبر فضلاً عن نبات قصب السكر ^(١٠) وقد وصف ابن بطوطة طرابلس بالخصب وكثرة الزراعة ونشاط التجاري وتنوع ثمارها فقال: (يكنفها البحر بمراقفه العميمة والبحر بخيراته المقيمة) وقال: (تخترقها الأنهار وتحفها البساتين والأشجار) ^(١١)

-
- (١) ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ٩١/١.
 - (٢) نزهة المشتاق، ٢٨٦/٢.
 - (٣) نهاية الأرب من فنون الأدب، ٢٦٧، ٢٦٤/٨.
 - (٤) المقدسي، محمد بن احمد، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق: غازي طليمات، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، (دمشق: ١٩٨٠)، ص ١٦٢.
 - (٥) نفسه، ص ١٥٤.
 - (٦) ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ٧٩/١.
 - (٧) العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت ٥٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: كامل سلمان الجبوري، ط ١، دار الكتب العالمية، (بيروت: ٢٠١٠م)، ٣/٣٧١.
 - (٨) نزهة المشتاق، ٣٧٢/١.
 - (٩) خسرو، ناصر، سفرنامه، تحقيق: يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد، ط ٣، (بيروت: ١٩٨٣)، ص ٤٧.
 - (١٠) العمري، مسالك، ٣/٣٦٣.
 - (١١) ابن بطوطة، أبو عبدالله محمد بن عبدالله، رحلة ابن بطوطة أو (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، تحقيق: علي المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة، (بيروت: ١٤٠٥هـ)، ١/٧٩، ٨٣.

ومدينة صيدا اشتهرت بكثرة الزراعة فيها حيث اشتهرت بالأشجار وكثرة الأنهار فيها ، مما ساعد على ظهور الزراعة بتنوع ^(١) ويذكر الإدريسي أن بها وادي يسمى الحر مشهور بالخصب كثير الفواكه والثمار ^(٢) وبرز ما اشتهرت به زراعة التين والعنب والزيتون ^(٣) والأترنج والليمون ^(٤) ويزرع بها قصب السكر بوفرة ^(٥) وبها الحنطة والشعير ^(٦) ومدينة بانياس هي الأخرى تشتهر بكثرة الحمضيات ولاسيما أشجار الليمون والأترنج ^(٧) كما يزرع فيها قصب السكر ^(٨) وفي مدينة غزة توجد بساتين النخيل والعنب والتين ^(٩) ومدينة صور عرف عنها أنها قليلة البساتين لذا تجلب إليها من رساتيقها القريبة ومن أهم ثمارها اللوز والتفاح ^(١٠)

أما القيسارية فقد اشتهرت بالبساتين وكثرة ماءها الذي يخرج من العيون ^(١١) وأشجار النارج والترنج ^(١٢) ومدينة بيروت عرف عنها كثرة أشجار الصنوبر فيها ^(١٣) وتعداد الفواكه ^(١) الفواكه ^(١) وأشجار النخيل وزراعة قصب السكر ^(٢) ويافا بها نخل وأشجار كثيرة ^(٣)

- (١) الفلقشندي، احمد بن علي بن احمد ، صبح الأعشى في صناعة الأنشا ، تحقيق : عبد القادر الزكار ، وزارة الثقافة ، (دمشق : ١٩٨١)، ٤/١١٥ .
- (٢) نزهة المشتاق ، ١/٣٧٠ .
- (٣) ابن بطوطة ، الرحلة ، ١/٢٦٠ .
- (٤) البغدادي ، مراصد ، ١/٣٢٧ .
- (٥) خسرو ، سفر نامه ، ص ٤٩ .
- (٦) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ١٦٠ .
- (٧) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ، ١٥٨ .
- (٨) أبو الفداء ، عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م) ، تقويم البلدان ، تحقيق : رينود ومالك كوكين ديسلان ، دار الطباعة السلطانية ، (باريس : ١٨٥٠م) ، ص ٢٥٥ .
- (٩) أبو الفداء ، تقويم البلدان ، ص ٢٣٩ ؛ العمري ، مسالك ، ٣/٣٧٩ .
- (١٠) الاضطخري ، أبي اسحق إبراهيم بن محمد (ت ٩٤٠هـ/٩٥١م) ، المسالك والممالك ، دار القلم ، وزارة الإرشاد القومي ، (الجمهورية العربية المتحدة: ١٩٦٠) ، ١/٨٠ .
- (١١) الحميري ، محمد بن عبد المنعم (ت ٧١٠هـ/١٣١٠م) ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق : احسان عباس ، مطبعة دار السراج ، (بيروت : ١٩٨٠) ، ص ٤٨٦ .
- (١٢) خسرو ، سفر نامه ، ص ٥٤ .
- (١٣) الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ١/١١٩ . الحميري ، الروض المعطار ، ص ١٢٣ ، ١٢٢ .

ثانياً- الثروة الحيوانية:

شكلت الثروة الحيوانية عنصراً مهماً ومكماً للنشاط الزراعي فهي تمثل مورداً للرزق وداعماً لموارد المدن المالية، لذا اهتم سكان حوض البحر المتوسط الشرقي بتربية أنواع مختلفة من الحيوانات .

فمن تلك الحيوانات المنتشرة ، الأغنام والماعز التي اهتمت بتربيتها مدن عدة ولاسيما مدينة طرابلس التي عرفت بتربيتها (٤) ووجدت تربية الأبقار والجاموس (٥) كما أن مدن الساحل الشامي اهتمت بتربية البغال والجمال واحتوائها على الإسطبلات الخاصة لتربية الخيول (٦) وانتشرت تربية الخنازير في عهد الصليبيين في بعض المدن التي سيطروا عليها حيث كثر الإقبال على لحومها لاسيما في عكا (٧) كذلك وجدت أنواع كثيرة من الطيور، كالإوز والدجاج والحمام (٨) وانتشر فيها أنواع من الطيور البرية كاللقلق والحباري والنسر والعقاب والكركي وغير ذلك الكثير (٩) كما وجدت الأرانب وهي ذات أحجام كبيرة (١٠).

وكذلك اشتهرت المدن الساحلية بصيد السمك البحري مثل مدينة طرابلس التي عرفت بكثرة سمكها البحري ، و مدينة يافا التي وجد بها أصناف متنوعة من الأسماك حتى قيل لا يوجد

-
- (١) ابن بطوطة، رحلة بن بطوطة، ٨١/١.
 - (٢) ابن حوقل ، أبو القاسم محمد بن علي بن حوقل النصيبي (ت ٣٦٧هـ/٩٧٧م)، صورة الأرض ، منشورات دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر ، (بيروت : ١٩٩٢م) ، ص ٢٦.
 - (٣) خسرو، سفر نامه ، ص ٥٣.
 - (٤) النويري، نهاية الأرب، ٣٣/٢٣٧؛ العمري، مسالك ، ٣/٣٧١.
 - (٥) البخيت ، محمد عدنان، مملكة الكرك في العهد المملوكي ، ط١ ، المعهد الدبلوماسي الأردني ، (الأردن : ١٩٧٦م) ، ص ٣٦، ٣٧.
 - (٦) برور ، يوشع ، عالم الصليبيين ، ترجمة: قاسم عبدة قاسم ومحمد خليفة حسن، عين للبحوث والدراسات الإنسانية والاجتماعية ، (مصر : ١٩٩٩) ، ص ١٦٧.
 - (٧) ابن جبير ، رحلة بن جبير ، ص ٢٧٦.
 - (٨) العمري، مسالك ، ٣/٢٨٦.
 - (٩) نفسه ، ٢١/٢٨٢، ٢٨٣.
 - (١٠) تقويم البلدان، ص ٢٣٤.

صنف من السمك الا وجد بها (١) ومما اشتهرت به صيدا صيد السمك لاسيما ذلك النوع الصغير الذي لا يتجاوز طوله طول الأصبع (٢)

ثالثاً- النشاط الصناعي:

عرفت بلاد الشام بتعدد الصناعات وتنوعها وتميز أهلها بإتقانهم لصناعاتهم، وقد ساعد على ازدهار الصناعة فيها عوامل عدة منها توافر المواد الأولية الداخلة في الصناعة من المعادن والإنتاج الزراعي والثروة الحيوانية وطرق المواصلات.

وقد أشار العمري إلى ازدهار الصناعة في بلاد الشام ومهارة أصحاب الحرف فيها والتفنن بصناعاتهم التي لا مثيل لها فقال: " وبها من أنواع الصناع المهرة في كل فن، وتعمل بها لطائف الأعمال من كل نوع وصناعاتها تفخر على بقية الصناع إلا ماقل" (٣) وهنا نبين أهم تلك الصناعات التي ظهرت في المدن الساحلية لبلاد الشام:

١- الصناعات المعدنية:

وجد في مدن ساحل بلاد الشام العديد من المعادن اللازمة للصناعات المعدنية ، فكان معدن الحديد متوافر وبكميات كبيرة في جبل بيروت (٤) لذا اشتهرت باستخراج الحديد الذي يوجد في الجبال قريب منها حيث يستخرج منه الكثير ويحمل بعدها إلى بلاد الشام وقد عرف عنه انه جيد القطع سهل الاستخراج ويستخدم في كثير من الصناعات (٥) وعرفت مدينة طرابلس بصناعة أسلحة القوس والنشاب والرمح والنبال والسيوف وغيرها (٦).

٢- الصناعات النسيجية:

اشتهرت العديد من المدن الشامية بصناعة النسيج وعدت من الصناعات الرئيسية في بلاد الشام ، فشاعت صناعة الألبسة الصوفية والقطنية والحريرية وصناعة السجاد والبسط

(١) شيخ الروبة، نخبة الدهر، ص ٢٠٧، ٢١٣.

(٢) ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ٧٨/١. الحميري، الروض المعطار ، ص٣٧٣.

(٣) مسالك ، ٣٥٦/٣، ٣٥٧.

(٤) العمري ، مسالك ، ٣٦٣/٣ . ابن بطوطة، الرحلة ، ١/٢٦٢.

(٥) الإدريسي، نزهة المشتاق، ١/١١٩. الحميري، الروض المعطار، ص١٢٢.

(٦) الشلي ، فيصل ، بلاد الشام ، ص ١٣٤.

والحصر والخيم التي صنعت من الصوف والشعر والوبر^(١) فقد اشتهرت مدينة صور بصناعة القماش الذي يعرف باسم (سندال)^(٢) وعرفت مدينة طرابلس بصناعة المنسوجات الحريرية والقطنية والكتانية والصوفية وصناعة السجاد والبسط^(٣)

أما مدينة عكا فقد تركز إنتاجها على صناعة أنواعاً من المنسوجات الحريرية والتي صدرت إلى الغرب حيث احتل القماش الحريري المرتبة الثانية بعد السكر في قائمة السلع المصدرة^(٤) كما كان لمدينة بيروت شهرة معروفة في صناعة الألبسة الحريرية المطرزة بالذهب والفضة^(٥)

٣- صناعة السكر:

نتيجة لانتشار زراعة قصب السكر في مدن ساحل بلاد الشام ، فقد ترتب على ذلك ظهور صناعة السكر التي تعد من الصناعات المهمة في بلاد الشام عامةً ، لما كانت تدره من أموال^(١) ، وقد وصف النويري علمية تصنيع السكر فذكر انها تقوم على مراحل عدة ، تبدأ بتنظيف أعواد القصب وذلك بقطع الجزء الأعلى منه الذي توجد فيه الحلاوة وينظف الجزء السفلي مما علق به من طين ثم ينقل إلى مكان آخر ليتم تقطيعه الى قطع صغيرة و تبدأ عملية طحنه وعصره بواسطة حجر كبير يدور بواسطة الحيوانات ثم يجمع الناتج بعد عصره في قدور مخصصة لذلك، ويبدأون بتصفية العصير بواسطة منخل ، بعدها ينقل إلى الطبخ لتصفيته مرة ثانية في قدر كبير حيث يسخن العصير إلى درجة الغليان ليتبخر الماء الموجود فيه، ثم ينقل ما تبقى من العصير ويصب في أكياس من الصوف حيث يصفى للمرة الثالثة، ثم ينقل

(١) الجميلي، عمار مرتضي علاوي، النشاط التجاري في مصر وبلاد الشام خلال عصر المماليك البحرية (٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨٢م) ، أطروحة دكتوراه غير منشورة ، قسم التاريخ ، كلية التربية - ابن رشد ، جامعة بغداد : ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ص٦٧،٦٨.

(٢) رانسمان، ستيفن، تاريخ الحملات الصليبية، ٤١٢/٣.

(٣) الشلي، فيصل، بلاد الشام ، ص١٣٣.

(٤) رانسمان، ستيفن، تاريخ الحملات الصليبية، ٦٠٣/٣.

(٥) نفسه ، ٤١٢/٣.

(٦) الشلي، فيصل، بلاد الشام ، ص١٣٤.

بعدها إلى قدور نحاسية أو أواني فخارية ويكون جاهزاً للاستهلاك^(١) أما أهم مناطق صناعته، فكانت أشهرها في مدينة طرابلس التي يكثر فيها قصب السكر^(٢) وكذلك في بيروت وعكا^(٣) وكانت مدينة عكا قد تركزت فيها صناعة السكر المعتمد على قصب السكر الذي انتشر زراعته بكثرة في السهل الساحلي حول المدينة^(٤) وكما عرفت مدينة صور بإنتاج السكر الجيد^(٥)

٤ - الصناعات الخشبية:

كان لتوافر الأشجار بكميات كبيرة في مناطق عدة من بلاد الشام ومنها المناطق الساحلية قد شجع ذلك على قيام الصناعات الخشبية وظهور عدد كبير من الحرفيين الذين اشتهروا بالدقة وجودة العمل مما أسهم في تنوع الصناعات الخشبية .

وكان من ابرز تلك الصناعات الخشبية التي اشتهرت بها مدن ساحل البحر المتوسط، ظهور صناعة السفن بحكم موقعها على البحر مباشرةً ولوجود الأخشاب الجيدة القريبة منها^(٦)

ومن ابرز المدن التي اشتهرت بصناعة السفن مدينة عكا حيث وجد بها دار لصناعة السفن أنشأها معاوية بن أبي سفيان^(٧) سنة (٦٤٩هـ/٦٦٩م) ، والذي شجعه على ذلك وجود أحواض

(١) النويري، نهاية الأرب، ٨/١٩٤، ١٩٥.

(٢) العمري، مسالك، ٣/٣٧١.

(٣) النويري، نهاية الأرب، ٨/١٩٧.

(٤) رانسمان، ستيفن، تاريخ الحملات الصليبية، ٣/٦٠٢.

(٥) المقدسي، أحسن التقاسيم، ١٦٣، ١٦٤.

(٦) رانسمان، ستيفن، تاريخ الحملات الصليبية، ٣/٤١٠-٤١٤.

(٧) معاوية بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي المعروف بمعاوية بن أبي سفيان كنيته أبو عبد الرحمن، أول خلفاء الدولة الأموية ، ولد بمكة قبل الهجرة بخمس عشرة سنة وكان سنه يوم الفتح ٢٣ سنة، أسلم يوم فتح مكة وكان أحد كتاب الوحي ، شهد غزوة حنين وقاتل المرتدين في معركة اليمامة، وتولى قيادة جيش امداد لأخيه يزيد في خلافة أبو بكر (رضي الله عنه) لفتح الشام ، تولى ولاية الأردن سنة (٦٤١هـ/٦٤١م). في عهد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، وبعد موت أخيه يزيد بطاعون عمواس، ولاء عمر ولاية دمشق وما يتبع لها من البلاد ، ثم جمع له الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) على ولاية الشام كلها، وبعد موت عثمان سنة (٦٥٥هـ/٦٥٥م)، خرج عن امر خليفة المسلمين علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، ونادى بأخذ الثأر من

لهذه الصناعة قديمة كما استفاد من أخشاب غابات لبنان وجمع عدد كبير من الصناع والتجارين الماهرين في هذا المجال ورتبهم في عكا يساهمون في صناعة السفن^(١) لذا عدت من أبرز المدن التي عرفت بصناعة السفن، والتي كان لها دار لصناعة السفن ومنذ مدة طويلة^(٢)

وكذلك مدينتا طرابلس وبيروت كانت لهما شهرة بصناعة السفن الحربية والتجارية بأنواعها المختلفة^(٣) كما ازدهرت صناعة السفن في مدينة صور حيث وجد فيها دار لصناعة السفن^(١) كذلك مدينة يافا فقد كان بها دار لصناعة السفن المسماة بالجودي^(٢)

قتلة الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) وحرض على قتلهم ، بعد مقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) تولى الحسن بن علي (رضي الله عنه) الخلافة فما كان من الحسن إلا أن حقق دماء المسلمين وتنازل عن الخلافة لمعاوية سنة (٤١هـ/٦٦١م)، أخذ معاوية من دمشق عاصمة ومقرّاً للخلافة الأموية وفي عهد معاوية فتح العديد من مناطق بلاد الروم، وبلاد الهند ، وكابل ، والأهواز ، وبلاد ما وراء النهر، وشمال أفريقيا ، وأنشأ أول أسطول بحري في تاريخ الإسلام وفتح به جزيرة قبرص وصقلية ومناطق وجزر في البحر الأبيض المتوسط ، وفي مجال السياسة يعتبر معاوية رمزاً للدهاء والسياسة وكانت العرب تضرب به المثل في ذلك و لعل أشهرها مصطلح شعرة معاوية، وهو كناية عن حسن السياسة أو الدبلوماسية، توفي في دمشق عن (٧٨) سنة بعدما عهد بالأمر إلى ابنه يزيد بن معاوية ودفن بين باب الجابية وباب الصغير بدمشق وكانت وفاته في رجب سنة (٦٠هـ/٦٧٩م)، كان خلالها والياً (٢٠) عام وخليفة (٢٠) عام أخرى. ينظر: اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (ت ٢٩٢هـ/٩٠٤م) ، تاريخ اليعقوبي ، دار صادر ، (بيروت: بلات)، ٢/٢١٦. ابن حجر العسقلاني ، أبو الفضل أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ/٤٤٨م) ، الإصابة في تمييز الصحابة ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، ط١، دار الجيل ، (بيروت / ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م)، ٦ / ١٥١. الذهبي ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، تحقيق : د. عمر عبد السلام تدمري ، دار الكتاب العربي، ط١، (بيروت / ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م)، ٤ / ٣٠٦.

(١) البلاذري، احمد بن يحيى بن جابر، فتوح البلدان، تحقيق: رضون محمد، دار الكتب العلمية، (بيروت: ١٤٠٣هـ)، ص ١٤٠. ابن شداد، الأعلام الخظيرة، ٢/١٧٢. رانسمان ، ستيفن، تاريخ الحملات الصليبية، ٣/٤١٢.

(٢) رانسمان، ستيفن، تاريخ الحملات الصليبية، ٣/٤١٠-٤١٤.

(٣) الجميلي، عمار، النشاط التجاري ، ص ٧٠.

وقد أدت السفن دوراً كبيراً في النقل التجاري ما بين الشرق والغرب فكانت ذات أحجام مختلفة ، منها ما هو كبير بحيث تصل حمولته إلى ما يقارب الالف شخص من المسافرين والحجاج والتجار فضلاً عن حمل العديد من البضائع التي يتم تفريغها حال رسوها في إحدى موانئ الساحل الشامي من قبل العمال الموجودين في الميناء ، وبعد إتمام التفريغ يؤدي التجار الرسوم المفروضة عليها كلاً حسب نوع البضاعة^(٣)

٥- صناعات أخر :

ظهرت في مدن ساحل بلاد الشام صناعات أخرى منها صناعة الصابون ، فقد انتشرت في مدن بلاد الشام نتيجة لكثرة الزيت ، وقد وصف شيخ الربوة صناعته في بلاد الشام بالكثرة والجودة ولاسيما صابون الرقي الذي يفيض عن الحاجة ويصدر الى خارج بلاد الشام كمصر والحجاز^(٤) فمدنية طرابلس واللاذقية نشطت صناعة الصابون فيهما^(٥) وكذلك عرفت تلك المدن ايضاً بصناعة زيت الزيتون وزيت السمسم^(٦)

ومن الصناعات الاخرى التي ظهرت في مدن ساحل بلاد الشام، استخراج الرخام أو المرمر وصناعته ، المستخدم في البناء وقد اشتهرت مدينة اللاذقية بصناعة الرخام الابيض والمائل للخضرة لوجوده في أراضيها بكثرة والذي كان يطلب منه في مدن بلاد الشام وغيرها^(٧) ، وكان يستخدم في البناء بكثرة ويستفاد منه ايضاً في علاج وجع الأسنان واللثة، إذ كان يحرق ثم يطحن بشكل ناعم ليوضع على مكان الالم^(٨) ولشهرة مدينة اللاذقية بصناعة الرخام

(١) قدامة بن جعفر ،الخراج وصناعة الكتابة ،تحقيق :محمد حسين الزبيدي ،دار الرشيد ،(بغداد :١٩٨٧)، ص١٨٨.

(٢) خسرو، سفر نامه ، ص٥٣.

(٣) براور، يوشع، عالم الصليبيين، ص ١٦٥،١٦٦.

(٤) نخبة الدهر، ص٢٠٠.

(٥) الشلي، فيصل، بلاد الشام ، ص١٣٤.

(٦) المقدسي، أحسن التقاسيم ، ص١٦٢.

(٧) شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص٢٠٩.

(٨) العمري، مسالك ، ٢٢/٢٠٤.

ووجود دار لصناعة الرخام فيها، فقد ذكر أن رخام اللاذقية ذاع شهرته وإن المعتصم بالله نقل منها الرخام لمدينة سامراء بعد أن صنعه وصبغه^(١) وهذا يدل إلى قدم صناعة الرخام فيها .
ومن الصناعات الأخرى صناعة الأصباغ التي اشتهرت بها مدينة صور وكذلك عرفت بصناعة الزجاج الذي اشتهر اليهود في إنتاجه وكانت صناعة الفخار رائجة^(٢) واشتهرت ومدينة طرابلس بصناعة الجبن ولأسيما المصنوع في القرى المنتشرة حول مدينة طرابلس^(٣) كما عرفت بصناعة الورق الجميل الذي يفوق الورق السمرقندي في حسنه وجودة صنعه^(٤)

رابعاً: الأسواق التجارية:

تتميز الأسواق التجارية لمدن ساحل بلاد الشام بالتنظيم والترتيب، إذ وجدت أسواق خاصة لكل سلعة ولكل صنف فكان يوجد فيها سوق خاص للقمح والغلل وسوق للفاكهة وسوق للبطيخ وسوق للماشية والأغنام وسوق للصاغة والحدادين والنحاسين^(٥) ، وسوق للحوم والسماك وسوق للخضار وسوق للأقمشة والملابس والزينة وغير ذلك^(٦) كما كانت جميع الأسواق مسقفة ومظلة لحماية السابلة^(٧) وكانت تثار ليلاً من قبل رجال مخصصين لهذا العمل إذ يسهرون على اضاءتها وحراستها بعد إغلاقها لمنع سرقتها^(٨) .

كما وجدت في داخل تلك الأسواق القيساريات التي ضمت العديد من الأسواق والحوانيت يديرها التجار وهي متخصصة للبيع والشراء وخزن البضائع ولها أبواب كبيرة مصنوعة من الحديد يتم غلقها عند المساء^(٩) لذا كانت أسواقها التجارية عامرة ودائمة الحركة وفيها مختلف

(١) رانسمان ، ستيفن، تاريخ الحملات الصليبية، ٤١٢/٣ .

(٢) نفسه ، ٤١٢/٣ .

(٣) النويري، نهاية الأرب، ٢٠٧/٣٢ .

(٤) سفر نامه، ص ٤٨ .

(٥) الجميلي، عمار، النشاط التجاري ، ص ٨٧ .

(٦) الشلي، فيصل، بلاد الشام ، ص ١٤٠ .

(٧) الشلي، فيصل، بلاد الشام ، ص ٢٢٦، ٢٢٧ .

(٨) نفسه ، ص ١٤٧ .

(٩) ابن جبير، الرحلة ، ص ٢٦١ .

البضائع والتجار يقصدونها ببضائعهم باستمرار فيباع في أسواقها باليوم ما ليباع في غيرها في شهر^(١)

فقد تميزت أسواقها بازدهار النشاط التجاري فيه منذ قديم الزمان فمثلاً كان هناك الأسواق دائمة للأخشاب المصدرة إلى مصر فقد كانت الأخشاب المستجلبية من غابات لبنان أو التلال الواقعة جنوب أنطاكية مصدراً أساسياً في بناء الأسطول المصري إضافة إلى استخدامه في البناء^(٢) واشتهرت المرفأ التجارية فيه بالحركة الدائمة للتبادل التجاري ما بين الشرق والغرب ناقلة البضائع والمواد شرقاً وغرباً دون توقف أو عارض يعيق عملها ، كما كان لها دوراً كبيراً في نقل الحجاج القاصدين بيت المقدس وغيرها .

وإضافة لذلك فقط ضمت تلك الأسواق أحياء خاصة لإقامة التجار فمثلاً كان للتجار الإيطاليين من جنوة والبندقية أحياء في المدن الساحلية فيها بيوت يسكنوها وقربها وجدت مستودعات خاصة لخبز بضائعهم^(٣) ، كما خصصت للحجاج والتجار القادمين من الغرب أدلاء يساعدهم على زيارة الأماكن وحمايتهم وحراستهم واستئجار البيوت لهم وهؤلاء الأدلاء يطلق عليهم (المكاريون) ومفردها (مكاري)^(٤) ولتسهيل مهمة التجار القادمين من الغرب، هناك محال خاصة لصرف العملة ومقايضتها في كل سوق، خاصة في المدن الساحلية ذات الموانئ^(٥).

فأسواق عكا عرفت بتميزها فقد كانت هذه الأسواق ذات أبنية عالية تعلوها القباب و احتوت هذه الأسواق على مختلف البضائع وكانت بها مظلات من القماش تظلل شوارعها وتحمي رواد السوق من الشمس والمطر غير أنها تنتشر جو من العتمة داخل الأسواق ، وكانت بالقرب منها الخانات التي ينزل فيها التجار القادمين إلى المدينة والتي احتوت على الإسطبلات للخيل والبغال والجمال وأماكن السقاية للشرب ، كما يوجد فيها المطاعم التي

(١) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ١٨.

(٢) رانسمان، ستيفن، تاريخ الحملات الصليبية، ٤١٢/٣.

(٣) زابوروف، ميخائيل، الصليبيون في الشرق، ص ١٤٨.

(٤) غوانمة، يوسف، تاريخ نيابة بيت المقدس ، ص ٨٥.

(٥) رانسمان، ستيفن، تاريخ الحملات الصليبية، ١٦٦/٣، ١٦٧.

توفر الغذاء للمقيم والمرتحل^(١) ووجد في عكا شارع أو منطقة خصصت للسيارة للقرب من الأسواق^(٢)

فان أهميتها التجارية كبيرة بحيث يصفها ابن جبير أنها مشابهة للقسطنطينية وإنها ملتقى التجار من المسلمين والنصارى القادمين إليها من كل الأفاق وإنها مرفئ كل سفينة^(٣) ويزيد أن اختلاف القوافل من دمشق الى بلاد الإفرنج غير منقطع فكانت القوافل تصل مدينة عكا ، وكذلك قوافل التجار النصارى لا يمنع احد منهم من المتاجرة بل هناك ضريبة يؤدونها على سلعهم^(٤) وهذا يصور أن عدد التجار الذين يقدمون إلى عكا كان كبير بحيث تزدحم الأسواق بهم .

ومدينة طرابلس كانت تضم أسواقاً كبيرة^(٥) ذكرها ناصر خسرو بقوله: (وأسواقها جميلة نظيفة حتى لتظن أن كل سوق قصر مزين وقد رأيت في طرابلس ما رأيت في بلاد العجم من الأطعمة والفواكه بل أحسن منه مائة مرة وفي السوق مشرعة ذات خمسة صنادير يخرج منها ماء كثير يأخذ منه الناس حاجتهم ويفيض باقيه على الأرض)^(٦) اما دورها التجاري فيبرز من خلال حديث الإدريسي فيقول: (والوارد والصادر إليها كثير وهي مقصودة بلامتعة ، وضروب الأموال وصنوف التجارة)^(٧) وتحصل المدينة عن طريق ميناءها على كمية كبيرة من الضرائب والمكوس فيذكر ناصر خسرو: (وتحصل المكوس بهذا المدينة فتدفع السفن الآتية من بلاد الروم والإفرنج والأندلس والمغرب العشر، وبها سفن تسافر إلى بلاد الروم وصقيلية والمغرب للتجارة)^(٨)

(١) براور، يوشع، عالم الصليبيين، ص ١٦٧.

(٢) براور، يوشع، عالم الصليبيين، ص ١٦٨.

(٣) رحلة بن جبير، ص ٢٧٦.

(٤) نفسه، ص ٢٠١.

(٥) ابن بطوطة، الرحلة، ١/٢٦٥.

(٦) سفر نامة، ص ٤٨.

(٧) نزهة المشتاق، ١/٣٧٢.

(٨) سفر نامة، ص ٤٨.

إما النشاط التجاري في صور فقد كان متميز نظير ما ممتازة به من بضائع جيدة وأسواق كبيرة ، فقد كانت أسواقها عبارة عن أبنية عالية ذات قباب حيث تضم مختلف البضائع وكان التاجر والصانع يعرض صناعته في مناطق مفتوحة على الشارع حيث حشود المشترين فقد كانت الأسقف ذات القباب أو المظلات القماشية فوق الشارع تحمي رواد السوق من الشمس والمطر (١)

وقد احتوت مدينة صور على الخانات (٢) وأماكن استراحة التجار وحيواناتهم وكذلك مطاعم الغذاء وغيرها من حاجات التجار الضرورية التي منها سوق الصرف للعملة ومقايضتها (٣) وكانت مدينة صور قد اشتهرت بسك العملة التي سميت باسمها (النقد الصوري) حيث لعب دورا في التجارة والمبادلة التجارية إلى جانب النقد العربي الإسلامي وكان أهل لشام والعراق يستخدمون النقد الصوري في التجارة (٤) والملاحظ انه منذ الحملة الصليبية الثالثة صار لتجار البندقية والجنوبيين أحياء مستقلة في صور وغيرها كان لها دورا في التجارة والنقل التجاري (٥)

اما أسواق مدينة صيدا فقد كانت عامرة رخيصة الأسعار (٦) وصفها ناصر خسرو فقال عنها: (وفي صيدا سوق جميل نظيف وقد ظننت حين رأيته انه قد زين خاصة لمقدم السلطان أو لان بشرى سعيدة أذيعت فلما سألت قيل لي هكذا عادة هذه المدينة ويصف مابها من حدائق ويتعجب من ترتيبها فيقول: (وفيها حدائق وأشجار منسقة حتى لنقول أن سلطان هاويا غرسها واغلب شجرها مثمر) (٧)

(١) رانسمان، ستيفن، تاريخ الحملات الصليبية، ٤١٢/٣.

(٢) الخانات : مفردا خان لفظة فارسية الأصل يراد بها منزل التجار أو الفندق الذي يمثل منزل المسافر وقد شملت الخانات كلا المنزلين. ينظر: ابن منظور، محمد بن مكرم المصري (ت ٧١١هـ/١٣١١م)، لسان العرب، ط١، دار صادر، (بيروت: ١٩٩٧)، ٣١٣/١٠.

(٣) رانسمان، ستيفن، تاريخ الحملات الصليبية، ١٦٦، ١٦٧.

(٤) القزويني، زكريا بن محمد بن محمود، أثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، (بيروت: ١٩٦٠)، ص ٢١٧.

(٥) بيرين، هنري، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص ٣٤٠.

(٦) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٣٧٠/١، الحميري، الروض المعطار، ص ٣٧٣.

(٧) سفر نامه، ص ٤٩.

إما مدينة بيروت فقد كانت أسواقها حسنة جميلة بها بضائع عدة كثيرة^(١) وقد عرفت بيروت في الفترة الصليبية منح الإعفاءات وإعطاء الامتيازات التجارية لتجار جنوة من اجل زيادة النشاط التجاري وتعويض لتجارها عن ما قدموه من مساعدة للحملات الصليبية^(٢) اضافة لذلك نجد ان الخانات قد انتشرت على طرق تلك المدن ، مثلاً الخانات التي في طريق بيروت وطرابلس وغيرها من المدن الشامية^(٣) وقد وصفت بأنها كالفقاع في حجمها وحصانتها وأبوابها الحديدية^(٤) وتتكون في الغالب من قسمين : الأرضي كمخازن للسلع وإيواء الدواب، في حين القسم العلوي مخصصاً لإقامة التجار^(٥).

خامساً : صادرات وواردات مدن ساحل بلاد الشام:

تميزت مدن ساحل الشام بكونها مركزاً مهماً من مراكز التجارة ونقل البضائع المختلفة ما بين الصادرة منها والواردة ولعبت دور الوسيط في ذلك ويمكن تبين ذلك على النحو التالي:

١ - الصادرات

تتوعت السلع والبضائع المنقولة من الشرق إلى الغرب والتي كانت تمر بمدن وموانئ بلاد الشام فكانت اهم تلك السلع والبضائع ، التوابل والأعشاب العطرية والفلفل والبهارات والمنسوجات^(٦) والأقمشة الحريرية والقطنية من صنع حرفيين الشام المهرة والسلال التي تحوي الفواكه وجوز الطيب وأكياس السكر والبخور والحرير الخام والمسك والمصوغات الذهبية والزجاج والأصباغ واللؤلؤ والاحجار الكريمة والعاج وصمغ الشجر المجلوب من بلدان إفريقيا^(٧) وبهذه البضائع كان التجار الغربيون يملئون سفنهم التي كان يمضون سعياً وراءها

(١) ابن بطوطة، رحلة بن بطوطة، ١/٨١.

(٢) زابوروف، ميخائيل، الصليبيون في الشرق، ص ١٥٠.

(٣) عباس ، إحسان، تاريخ بلاد الشام في عصر المماليك (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م) ، منشورات

لجنة تاريخ بلاد الشام ، (الجامعة الأردنية : ١٩٩٨م)، ص ١٣٠.

(٤) ابن جبير، الرحلة ، ص ٢٢٨.

(٥) الشلي، فيصل، بلاد الشام ، ص ١٤٨.

(٦) براور ، يوشع، عالم الصليبيين، ص ١٧٤.

(٧) زابوروف، ميخائيل، الصليبيون في الشرق، ص ١٥٠.

إلى أعمق المناطق الإسلامية إلى الأسواق حيث كانت تدر عليهم إرباحاً كبيرة جداً في الغرب^(١)

أما عن أهم السلع والبضائع التي كانت تصدرها المدن الساحلية لبلاد الشام فقد كانت مدينة عكا تصدر مختلف البضائع التي في مقدمتها المنسوجات الحريرية والسكر^(٢) وأما السلع التي تصدرها صور فهي التوابل القادمة من بلاد الشرق الأقصى والزجاج الصوري الذي تميز اليهود بصناعته ونافس الزجاج المصري وصدرت الفخار والقماش والثياب التي تحمل إلى كل الأفاق والأصباغ الأرجوانية والسكر الجيد الصنع^(٣)

واشتهرت بيروت بتصدير الفواكه إلى ديار مصر^(٤) كما صدرت الموز وقصب السكر^(٥) وخامات الحديد لوفرتها^(٦) وأما مدينة صيدا فقد ازدهرت تجارتها مع مصر لاسيما تصدير التين والزبيب والزيت إلى بلاد مصر^(٧)

٢ - الواردات

جلبت العديد من البضائع إلى موانئ الساحل الشامي ، فالمدن الغربية كانت تجلب للشرق من بلاد الغرب الخشب للبناء والمعادن التي منها النحاس والقصدير من انكلترا والجلود والجوخ^(٨) من مدن فرنسا الجنوبية والخيول وهناك تجارة العبيد التي كان تجار البندقية الموردين الاوائل لهذه التجارة^(٩)

(١) زابوروف، ميخائيل، الصليبيون في الشرق، ص ١٤٨، ١٥٠.

(٢) رانسمان، ستيفن، تاريخ الحملات الصليبية، ٦٠٣ / ٣.

(٣) نفسه، ٤١٢ / ٣.

(٤) ابن بطوطة، رحلة بن بطوطة، ٨١/١.

(٥) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٦٠.

(٦) الإدريسي، نزهة المشتاق، ١١٩/١، الحميري، الروض المعطار ، ص ١٢٣، ١٢٢.

(٧) ابن بطوطة، رحلة بن بطوطة، ٨١/١.

(٨) الجوخ: كلمة فارسية معربة أصلها جوخا وهو نسيج من الصوف يصنع منه الثياب والبدن بغير بطانة، كان يستخدم من قبل المغاربة والأفرنج. ينظر: إبراهيم ، رجب عبدالجواد، المعجم العربي لأسماء الملابس في ضوء المعاجم والنصوص الموثقة من الجاهلية حتى العصر الحديث ، ط ١ ، دار الأفاق العربية ، (القاهرة : ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م)، ص ١١٩.

(٩) زابوروف، ميخائيل، الصليبيون في الشرق، ص ١٤٨.

والملاحظ أن تجارة المعادن والأخشاب كان قد فرض عليها قيوداً من قبل البابوية لأنها تستخدم في صناعة الأسلحة فحاولت منع المتاجرة بهما مع المسلمين، فضلاً عن ذلك فإن تجار المدن الغربية قد تاجروا ببضائع أخرى منها عملية نقل الجنود في أثناء الحملات الصليبية في الشرق وكذلك نقل الحجاج القاصدين بيت المقدس وغيرها من المدن فكانت تلك التجارة تكسبهم عائدات مالية كبيرة (١)

وهنا لابد من الذكر أن الرحلة من المدن الايطالية إلى بلاد الشام كانت تستغرق ثلاث أسابيع متواصلة في الظروف الاعتيادية، وكانت السفن الأكبر حجماً تستطيع أن تحمل ألفاً من التجار والحجاج فضلان عن العديد من الأطنان من البضائع التي تفرغ حال رسوها في احد موانئ الساحل الشامي حيث يتم تفريغها من خلال مد السلالم الخشبية أو ألواح الخشب المحمولة على ظهر الحمالين والتي توضع على الأرصفة المزدحمة في منطقة الميناء الضيقة ، وكان التجار يؤدون عليها الرسوم المعتادة في شرق البحر المتوسط بعد مساومات مع سلطة الجمارك في الميناء وكانت هذه الرسوم المفروضة مختلفة بحسب البضائع وجنسية مالكيها وحيثما توجد الرسوم الجمركية توجد محاولات التهريب والشهادات المزيفة بقيمة البضائع بغية تقليل مقدار الرسوم ، وبعد أن يكمل التاجر بضاعته ويفرغها ويدفع عنها الرسم يشق طريقه إلى الخانات التي هي فنادق تبني بالقرب من الميناء على قدر المستطاع والتي كان بها خدمات للتاجر والنزول توفر لهم الراحة وكان بها إسطبلات للخيل والبغال والجمال وأماكن السقاية السابلة لشرب الماء للإنسان والحيوان وكانت تنتشر المطاعم في عموم موانئ المدن الشرقية للبحر المتوسط وغيره (٢)

سادساً: العملات النقدية

عرفت مدن الساحل الشامي تداول عدة أنواع من العملات النقدية منها ما هو ذهبي ومنها ما هو فضي غير أن العملات الذهبية كانت هي السائدة بين تلك المدن لاسيما الدينار الذهبي والدرهم الفضي العباسي ثم الفاطمي في مرحلة الهيمنة الفاطمية (٣) وكان تجار الغرب

(١) رانسمان، ستيفن، تاريخ الحملات الصليبية، ٤١٣/٣.

(٢) براور، يوشع، عالم الصليبيين، ص ١٦٥_١٦٦.

(٣) براور، يوشع، عالم الصليبيين، ص ١٦٨.

يسمون الدينار العربي الإسلامي باسم (بيزنط عربي) بدلاً من الدينار تقادياً لما قد يحدثه ذلك من التباس بين كلمة (دينار) مع (دنير) الذي كان عبارة عن نقد روماني ثم فرنسي قديم وهو ضئيل القيمة والذي كان يتم تداوله في أسواق الشام إلى جانب العملات العربية المعروفة خلال فترة السيطرة الصليبية^(١) وبعد نشوء الدويلات الصليبية ظهرت عملة جديدة في بيت المقدس وطرابلس وصور وغيرها من الإمارات الصليبية عرفت باسم (البيزنطات الشرقية) والتي كانت في حقيقتها مقلدة من الدينار الفاطمي لكن محتواها الذهبي كان اقل فلم يتجاوز الثلثين من قيمة الدينار الذهبي الفاطمي تقريباً^(٢) وقد اطلق العرب المسلمون على هذه العملة اسم (العملة السورية) نسبة إلى مدينة صور الشامية التي كانت تسك بها النقود في تلك الفترة^(٣) وكان أهل الشام والعراق يستخدمون ذلك النقد في التجارة^(٤)

ومن المعروف انه عندما بدأت الحملات الصليبية على الشرق لم يكن في الغرب ضرب للنقود الذهبية في غرب أوروبا باستثناء صقلية والأندلس المسلمة في حين كانت الفضة هي الشائعة وهي اثنان المعادن المستخدمة في التعامل التجاري^(٥) لذا نجد التجار في الغرب لاسيما المدن الايطالية يعملون على جمع الذهب من اجل المتاجرة مع الشرق لأنها أساس التبادل التجاري^(٦) ولما كان الذهب قليل في بلاد الغرب فان الإفرنج حصلوا على الذهب أما عن طريق المبادلة بالفضة الكثيرة عندهم بالذهب أو يحصلون عليه من السودان عن طريق التجار الذين ينقلونها إلى الأندلس منها تعبر الحدود بطرق شرعية وغير شرعية إلى الغرب المسيحي إضافة لذلك هناك مصادر أخرى للحصول على الذهب لكن بنسب قليلة منها عمليات السلب والنهب والفيدي التي قام بها الصليبيون في الشرق وحولوها إلى الغرب^(٧)

(١) كاهين، كلود ، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ص ١٨٠.

(٢) رانسمان، ستيفن، تاريخ الحملات الصليبية، ٤١٩/٣.

(٣) بيرني، هنري ، تاريخ أوروبا ، ص ٢٥١. رانسمان ،ستيفن، تاريخ الحملات الصليبية، ٤٢٠/٣.

(٤) القزويني، آثار البلاد ، ص ٢١٧.

(٥) رانسمان، ستيفن، تاريخ الحملات الصليبية، ٤١٩/٣.

(٦) كاهين، كلود ، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية ، ص ١٨٠

(٧) رانسمان، ستيفن، تاريخ الحملات الصليبية، ٤٢٠/٣. كاهين، كلود، الشرق والغرب زمن الحروب

الصليبية، ص ١٨٠.

ولما كان هدف التجار في الغرب هو المتاجرة مع الشرق وأسواقه الكبرى في حوض البحر المتوسط المليئة بالبضائع نجد أن هذه المدن احتوت جميعها تقريبا على مناطق مخصصة للصياغة بالقرب من الأسواق والتي كان يعقد بها الصفقات التجارية وتتداول الأيدي صكوك القروض (١)

المبحث الثاني: أهم المدن الساحلية وموانئها في شرق البحر المتوسط

١ - مدينة عكا

مدينة كبيرة تعد من ثغور ساحل بلاد الشام وواحداً من قواعده الرئيسية (٢) يصفها ابن جبير فيقول: (هي قاعدة مدن الإفرنج بالشام ومحط الجوّاري المنشآت في البحر كالأعلام مرفأ كل سفينة والمشبهة في عظمتها بالقسطنطينية ، مجتمع السفن والرفاق وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الأفاق سككها وشوارعها تغص بالزحام وتضيق فيها موطئ الأقدام) (٣) وقد وصفها الإدريسي بقوله (مدينة عكا كبيرة واسعة الأرجاء كثيرة الضياع) (٤) فهي مدينة عامرة بالسكان وذات ثراء كبير وكان معاوية بن أبي سفيان قد جمع الصناعات والتجار فيها وعمال بها دار الصناعة بعد ما كانت الصناعة بمصر فقط (٥)

وقد عرف عن ميناء عكا انه كان حسن المرسى مأمون (٦) ولكن المثلبة الوحيدة للميناء هي ضالة المرفئ الداخلي بحيث لم يكن يتسع للسفن الكبرى لذا كانت تضطر للرسو خارج حاجز الأمواج حيث تكون عرضة للرياح الجنوبية الغربية مما يضطرها للرسو في مرفئ غيره أما السفن الصغيرة فأنها تدخل بسهولة إلى الميناء (٧)

(١) براور، يوشع، عالم الصليبيين، ص ١٦٥، ١٧١.

(٢) الحميري، الروض المعطار، ص ٤١٠.

(٣) رحلة بن جبير، ص ٢١١.

(٤) نزهة المشتاق، ٢/٢٨٦.

(٥) ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ١/٩١.

(٦) الإدريسي، نزهة المشتاق، ١/٣٥٧، ٣٦٥.

(٧) ابن جبير، رحلة بن جبير، ص ٢١١. رانسمان، ستيفن، تاريخ الحملات الصليبية، ٣/٤١٤.

ورغم ذلك فإن ميناء عكا كان أكثر موانئ الساحل الشامي ازدحاما بحركة الأعمال فهو الميناء الطبيعي لدمشق والذي كان يستخدم لتصدير المنتجات الدمشقية وغيرها وليس هذا وحسب وإنما يخدم جميع التجار فهو الميناء الوحيد الآمن في فلسطين جميع أيام السنة وكان المسافرون إلى الأماكن المقدسة يفضلون النزول إلى البر فيه أكثر من تفضيلهم النزول في غيره من الموانئ لاسيما يافا ذات الحوادث الكثيرة (١)

ومما زاد في أهمية الميناء وجود برج يسمى برج (الذباب) في مرفئ عكا ليبدل السفن الداخلة إلى الميناء حتى لا تصطدم بالصخور (٢) وليس هذا وحسب بل كانت عكا الميناء الوحيد الآمن في فلسطين كلها والمسافرون إلى الأماكن المقدسة يفضلون النزول إلى البر فيه أكثر من تفضيلهم النزول في ميناء يافا ذات الحوادث الكثيرة (٣) كما أن هذا الميناء ينزل فيه التجار المغاربة القادمين من شمال إفريقيا ومنه يرتحطون إلى أماكن بعيدة تصل بهم إلى دمشق وغيرها من المدن الإسلامية بقصد التجارة (٤)

ونظرا لأهمية ميناءها نجد أن التجار القادمين من الغرب يطمحون بالحصول على امتيازات تجارية فيها منها أن التجار الجنوبيين كان لهم أحياء في عكا وإعفاء من المكوس والضرائب تقدر بستمائة بيزنت ذهب ، وكذلك البندقية التي أقامت لها مكاتب محاسبة وعقد صفقات في عكا (٥) ويشار إلى أن قسم من هذه الامتيازات التي حصل عليها أهل جنوه والبندقية في عكا كان بمثابة تعويض عما قدموه من عون في الحملات الصليبية وقد وعدوا بتعويضات مماثلة إذا ما ساهموا بالحملات القادمة (٦) والملاحظ ان الصليبيون في عكا في فترة سيطرتهم على المدن الساحلية قد خصصوا جزء من الجامع الكبير الذي حولوه إلى كنيسة إلى مكان يباشر المسلمون فيه صلاتهم (٧) وما ذلك إلا رغبة منهم في كسب ود التجار

(١) رانسمان، ستيفن، تاريخ الحملات الصليبية، ٤١٤/٣.

(٢) براور، يوشع، عالم الصليبيين، ص ١٦٥.

(٣) رانسمان، ستيفن، تاريخ الحملات الصليبية، ٤١٤/٣.

(٤) نفسه ، ٤١٥/٣.

(٥) بيرين، هنري، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص ٢٥١.

(٦) كاهين، كلود، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية ، ص ١٤٤.

(٧) رانسمان، ستيفن، تاريخ الحملات الصليبية، ٤١٥ /٣.

المسلمين القادمين إليهم وهناك ملاحظة على النشاط التجاري في عكا وهي وجود مشكلة في ميناءها تمثل في صغر مساحة الميناء إذ لا يتسع لدخول السفن الكبرى فكان لزاما عليها أن ترسو خارج ميناء عكا وهذا يؤدي إلى تعرض السفن إلى خطر الرياح والأعاصير لذا كان ذلك يمثل عامل طرد للسفن التي تفضل الذهاب إلى ميناء صور الذي كان يمثل منافسا لميناء عكا^(١) ومن خلال دراسة النصوص التاريخية نستنتج أن ازدهار النشاط التجاري لمدينة عكا قبل وبعد الاحتلال الصليبي قد استمر بل زاد بفعل عامل الربط الذي لعبته المدينة ما بين الشرق والغرب^(٢)

٢ - صور

مدينة قديمة بساحل بحر الشام بناؤها من أعظم أبنية الدنيا وكانت من أحصن الحصون التي على الساحل البحر^(٣) فتحها العرب المسلمون في خلافة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)^(٤) وقد وصفها ابن جبير فقال: (هي مدينة يضرب بها المثل في الحصانة لا تلقى لطالبا يد طاعة ولا استكانة قد أعدها الإفرنج مفزعا لحادثة زمانهم وجعلوها مثابة لأمانهم)^(٥) والذي ميز حصانة المدينة أنها تقع في جزأين أحدهما في البر والأخر في البحر فلا يستطيع العدو التمكن منها، كذلك من متانة تحصينها أن مينائها يضم برجين بينها سلسلة من الحديد تمنع مرور السفن إلى الميناء الأبعد اخذ الموافقة وعلى البرجين حرس شديد^(٦) وقد وصف ابن جبير تلك الحصانة فقال: (وإما حصانتها ومناعتها فلعجب ما يحدث به وذلك أنها راجعة ما بين البر والأخر في البحر وهو يحيط بها إلا من جهة واحدة، فالذي في البر يفضي إليه بعد ولوج ثلاث أبواب أو أربعة كلها في ستائر مشيد محيطة بالباب وأما الذي في البحر فهو مدخل بين برجين مشيدين، الميناء ليس في البلاد البحرية أعجب

(١) ابن جبير، رحل بن جبير، ص ٢٧٨. الحميري، الروض المعطار، ص ٣٦٩.

(٢) رانسمان، ستيفن، تاريخ الحملات الصليبية، ٦٠٣ / ٣.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ١٥٨ / ٤.

(٤) البلاذري، فتوح البلدان، ١٤٢.

(٥) رحلة بن جبير، ص ٢١٢.

(٦) ابن بطوطة، رحلة بن بطوطة، ٨١ / ١.

وصفا منها يحيط بها سور المدينة من ثلاث جوانب ويحديق بها من الجانب الآخر معقود بالجص فالسفن تدخل تحت السور وترسو فيها وتعرض بين البرجين المذكورين سلسلة عظيمة تمنع عند اعتراضها الداخل أليها فلا مجال للمركب للخارج الأعلى أعينهم، فشان هذه الميناء شان عجيب في حسن الوضع (١) فلا مجال للمركب ألا عند إزالة السلسلة والتي عليها حراس أمناء لا يدخلها أو يخرج منها ألا على أعينهم (٢) وقد عرف عن مرفأ صور انه كان الأكبر بين الموانئ الشرقية والأكثر أماناً (٣) وكان في مينائها ما يصل إلى مئة سفينة (٤) وهذا يعكس أهميته التجارية ودوره في النقل البحري وكان بها دار لصناعة السفن على ساحل البحر (٥) وكان عبد الملك بن مروان (٦) قد جدها وفي عهد هشام بن عبد الملك (٧) نقل الصناعة إلى صور من عكا واتخذها خندقاً ومستغلاً (٨)

٣- اللاذقية

(١) رحلة بن جببر ، ٢١٢. ابن بطوطة ، رحلة بن بطوطة ، ٨١/١.

(٢) الحميري، الروض المعطار، ص ٣٦٩.

(٣) رانسمان، ستيفن، تاريخ الحملات الصليبية، ٤١٤/٣.

(٤) براور، يوشع، عالم الصليبيين، ص ١٦٥.

(٥) قدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة ، ص ١٨٨.

(٦) عبد الملك بن مروان بن الحكم يكنى (أبو الوليد) ، ولد في المدينة المنورة سنة (٢٦هـ / ٦٤٦م)، يعد المؤسس الثاني للدولة الأموية، استلم الحكم بعد وفاة والده وكان ذلك في العام (٦٥هـ/٦٨٤م) ، حكم مدة واحد وعشرين عاماً، استطاع القضاء على الاضطرابات والفتن والعديد من الانقسامات ، يعد أول من سك الدينار الذهبي إسلامي سنة (٧٧هـ/٦٩٦م)، وقام بتعريب الدواوين إلى اللغة العربية، بالإضافة إلى قيامه ببناء مدن، من أهمها تونس في الشمال الشرقي، ومدينة واسط في العراق، توفي في دمشق سنة (٨٦هـ/٧٠٥م). ينظر: ابن الخياط ، أبو عمرو خليفة بن خياط بن خليفة الشيباني (ت ٢٤٠هـ/٨٥٤م)، تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق: د. أكرم ضياء العمري، ط ٢ ، دار القلم ، مؤسسة الرسالة (دمشق ، بيروت/ ١٣٩٧هـ)، ص ٢٦١، ٢٩٢. الذهبي، تاريخ الإسلام ط ٢ ، ٦ / ١٣٥ وما بعدها.

(٧) هشام بن عبد الملك الأموي القرشي المولود سنة (٧٢هـ/٦٩١م) في دمشق، وهو الخليفة العاشر من خلفاء بني أمية، تولى الخلافة عام (١٠٦هـ/٧٢٤م)، بلغت الدولة في عهده أقصى مراحل امتدادها واتساعها، حيث وصل إلى مشارف فرنسا وخاض الجيش معركة بلاط الشهداء ضد الفرنجة، وقد اتخذ هشام في عهده عاصمة صيفية هي مدينة الرصافة، إضافة إلى العاصمة الرسمية دمشق عاصمة الخلافة الأموية ، وقد توفي في الرصافة عام (١٢٦هـ/٧٤٣م)، وقد عدّه المؤرخون آخر من توفي من الخلفاء الأمويين الأقياء. ينظر: ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد الشيباني الجزري، (ت ٦٣٢هـ/١٢٣٢م)، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط ١، دار الكتاب العربي، (بيروت / ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م)، ٤ / ١٦٥، ٢٨٢. الذهبي ، تاريخ الإسلام ، ٨ / ٢٨٢.

(٨) البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٢٤، ١٢٥.

مدينة في ساحل بحر الشام تعد من أعمال حمص، قديمة البناء لها ميناء جيد محكم ولها قلعتان متصلتان على تل مشرف عليها^(١) فتحها العرب المسلمون في خلافة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) سنة (١٩هـ/٦٤٠م)^(٢) وصفها الإدريسي بقوله: (انها مدينة عامرة أهلة كثيرة الخصب والخيرات وهي على نحو البحر ولها ميناء حسنة ترسو بها المراكب والقوارب القاصدة إليها)^(٣) وابرز ما يميز المدينة هو الميناء الذي يعد عامل نشاط تجاري كبير لها حيث يستقر به التجار القاصدين المدينة أو بلاد الشام بقصد التجارة وهي مركز لتصدير بضائع الشام أيضا لذا فقد وصف ميناءها انه دائم الحركة ترسو به المراكب والقوارب ذهابا وإيابا^(٤) واهم تلك الموانئ ، ميناء اللاذقية الذي اعجب به شيخ الربوة وعده من أوسع الموانئ في البحر بحيث ترسو فيه كبار السفن، وتحميه سلسلة من الحديد تمنع دخول المراكب إليه^(٥) ومما زاد في أهمية الميناء انه يناسب جميع الأحوال الجوية وكان التجار المسلمون أو النصاري يحضرون البضائع إليه من أنطاكية واليونان والأرمن^(٦) وكان هناك خاصية للبضائع القادمة من الشمال لاسيما حلب لا ما عرفت عنها من فخامة وجودة صناعية فكانت تطلب بكثرة فيها^(٧) وكان ذلك الميناء يستقبل البضائع التي يستوردها التجار المسلمون والنصاري من أنطاكية واليونان والبلاد الأوربية الاخرى^(٨) وتبرز أهميتها التجارية من خلال ما ذكره ابن بطوطة في أثناء سفره من ميناء اللاذقية إلى بلاد الروم حيث يصف كثرة المراكب ودور التجار الجنوبيين في النقل فقال : (ومن اللاذقية ركبا البحر في قرقورة كبيرة للجنوبيين ويسمى

(١) ياقوت الحموي ، أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموري البغدادي ، (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م) ، معجم البلدان ، دار صادر ، (بيروت : ١٩٧٧م) ، ٦،٥/٥.

(٢) الواقدي، أبو عبدالله محمد بن عمر ، فتوح الشام ، دار الكتب العلمية ، (بيروت : ١٩٩٧) ، ٣٦/٢.

(٣) الإدريسي، نزهة المشتاق ، ٦٤٥/٢.

(٤) الإدريسي ، ٦٤٥/٢.

(٥) نخبة الدهر ، ص ٢٠٩.

(٦) رانسمان ، ستيفن، تاريخ الحملات الصليبية، ٤١٤/٣.

(٧) نفسه ، ٤١٧/٣.

(٨) نفسه، ٤١٤/٣، ٤١٥.

صاحبها (بمرتلين) وقصدنا البر التركي المعروف ببلاد الروم ، وسرنا في البحر عشرا حتى وصلنا (١)

٤ - طرابلس:

مدينة طرابلس الشام مدينة عظيمة عليها سور من الحجر المنيع ، وهي معقل من معاقل الشام (٢) مشيدة على البحر بحيث أن ثلاثة من جوانبها مطلة على البحر أما الجانب المطل على اليباس فيه خندق عظيم عليه باب حديدي محكم (٣) فتحت المدينة في خلافة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) وكان معاوية بن ابي سفيان يعمل على شحنها بالمقاتلة (٤) ومستمرة تحت الحكم العربي الإسلامي حتى دخلها الإفرنج سنة (٥٠٣هـ / ١١٠٩م) بعد حصار طويل ولم تنزل في أيديهم إلى أن فتحها بيبرس (٥) سنة (٦٦٩هـ / ١٢٧٠م) (٦) وقد احتل ميناء طرابلس أهمية بالغة في تجارة بلاد الشام الخارجية والداخلية، لذا وصف بأنه يمثل إحدى قواعد بلاد الشام (٧) فتحصل المدينة عن طريق ميناءها على كمية كبيرة من الضرائب والمكوس فيذكر

(١) رحلة بن جببر ، ١/٣١٢.

(٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ١/١٦٤.

(٣) خسرو ، سفر نامه ، ص٤٧.

(٤) البلاذري، فتوح البلدان ، ص١٣٣.

(٥) بيبرس: هو أقوى المماليك وأشدّهم بأساً، كان عبدا مملوكاً اشتراه السلطان الصالح أيوب، واثبت جداره في الحرب فارتقى في المناصب، وكان له دور كبير في موقعة عين جالوت فوعده قطز بنبابة حلب غير أن الأخير لم يوف بوعده ، فحقد عليه بيبرس ودبر قتله وتولى السلطنة ، فكان بحق مؤسس الدولة المملوكية وحكم من سنة (٦٥٨ - ٦٧٦هـ / ١٢٥٨ - ١٢٧٧م). ينظر: بيبرس المنصوري (٧٢٥هـ / ١٣٢٤م)، مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية ، تحقيق : عبدالحميد صالح حمدان، ط١، الدار المصرية اللبنانية ، (القاهرة : ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م)، ص١٢. الكتبي ، محمد بن شاكر بن أحمد (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م)، فوات الوفيات ، تحقيق : علي محمد بن يعوض الله و عادل أحمد عبدال موجود ، ط١، دار الكتب العلمية ، (بيروت : ٢٠٠٠م)، ١/ ٢٥١. القرمانى، أحمد يوسف (ت ١٠١٩هـ / ١٦١٠م)، أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، تحقيق : أحمد حطييط وفهمي سعد ، ط١، عالم الكتب، (بيروت : ١٩٩٢م)، ٢/٢٧٠.

(٦) ابن شداد ، الأعلام الخطيرة ، ١/٧٩.

(٧) ابن بطوطة، الرحلة ، ١/٢٦٥.

خسرو: (وتحصل المكوس بهذا المدينة فتدفع السفن الآتية من بلاد الروم والإفرنج والأندلس والمغرب) ^(١) وهذا إلى مدى أهمية ميناء طرابلس في التجارة مع بقية البلدان ومما دل على ذلك كثرة التجار القادمين والمغادرين وكونها عامل ربط ما بين الشرق والغرب.

٥ - عسقلان:

مدينة في الشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر يقال لها عروس الشام ، وقيل في معنى اسمها أن عسقلان تعني البلدة التي في أعلى الشام ^(٢) يذكر الواقدي أن المدينة فتحت صلحا في خلافة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) سنة (١٩هـ/٦٤٠م) مع فتح القيسارية ، حيث كان الصلح على مبلغ من المال يقدر بمائة ألف درهم ثم وصل الخبر إلى الرملة وعكا وعسقلان ونابلس وطبرية فعدوا كلهم صلحا مع المسلمون وكذلك أهل بيروت وجبله واللاذقية ^(٣) في حين يذكر البلاذري، أن معاوية ابن أبي سفيان هو الذي فتح عسقلان غير أن فتح معاوية كان استكمال لفتح المدينة لأنها بعد الصلح نقضت العهد مما اضطر المسلمون إلى فتحها عنوة ثانية على يد معاوية والذي اسكنها الروابط ووكل بها الحفظة وفي عهد عبد الملك ابن مروان زاد من بناءها وحصنها ^(٤) ويذكر الإدريسي أن مدينة عسقلان: (مدينة حسنة ذات سورين) ^(٥) ويذكر ابن جبير مدينة عسقلان فيقول: (مدينة عامرة جميلة الموقع على ساحل البحر يؤم ميناءها عدد غفير من التجار لقربها من حدود مصر) ^(٦) وبذلك فإن ابن جبير قد بين أسباب ازدهار التجارة فيها من خلال ذكر مميزات الموقع المطل على البحر وقربها من حدود مصر حيث كانت مقصد التجار وحسن ميناء المدينة وترتيبه بحيث يكون مقرا لدخول عدد كبير من التجار القاصدين المتاجرة ونقل البضائع شرقا وغربا وهذا ما أكده الإدريسي

-
- (١) سفر نامه، ص ٤٨.
 - (٢) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، دار صادر، ١٢٢/٤.
 - (٣) فتوح الشام، ٣٦/٢.
 - (٤) فتوح البلدان، ص ١٤٨.
 - (٥) نزهة المشتاق، ٣٦٥/١. الحميري، الروض المعطار، ص ٤٢٠.
 - (٦) رحلة بن جبير، ص ٢٧٦.

عندما ذكر ميناء المدينة فقال: (ولها مرسى حسن مأمون) ^(١) ويذكر ابن بطوطة عنها: (هي بلد قل جمع المحاسن ما جمعته عسقلان اتقانا وحسن وضع وأصالة وجمعا بين مرافق البر والبحر) ^(٢)

٦ - القيسارية:

مدينة بالشام على ساحل البحر كبيرة كانت من أمن مدن فلسطين ^(٣) يذكر الواقدي أن فتحها كان في خلافة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) سنة (١٩هـ / ٦٤٠م) صلحا على مبلغ من المال يقدر بمائة ألف درهم ^(٤) ويذكر البلاذري أن عبد الملك بن مروان قد أعاد بناء المدينة وحصنها عندما أعاد بناء مدينة عسقلان ^(٥) والمدينة لها سور يحيط بها عرف عن حصانته وبه باب حديدي يحمي المدينة عند إغلاقه ^(٦)

٧ - صيدا:

مدينة عامرة على ساحل البحر من ارض الشام عليها سور من الحجارة ^(٧) كورها كثيرة لها أربعة مناطق متصلة بجبل لبنان وهي تشتمل على نيف وستمائة ضيعة ^(٨) تم فتح المدينة على يد معاوية ابن أبي سفيان في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ^(٩) والمدينة يحيط بها سور من الحجر محكمة البناء ولها ثلاث أبواب ^(١٠)

٨ - بيروت:

-
- (١) نزهة المشتاق، ١/٣٦٥، ٣٥٧.
 - (٢) رحلة بن بطوطة، ١/٢٥.
 - (٣) الحميري، الروض المعطار، ص ٤٨٦.
 - (٤) الواقدي، فتوح الشام، ٢/٣٦.
 - (٥) فتوح البلدان، ص ١٤٨.
 - (٦) خسرو، سفر نامه، ص ٥٤.
 - (٧) الإدريسي، نزهة المشتاق، ١/٣٧٠، الحميري، الروض المعطار، ص ٣٧٣.
 - (٨) ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ١/٧٨.
 - (٩) البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٣٣.
 - (١٠) خسرو، سفر نامه، ص ٤٩.

مدينة على ساحل البحر واسعة يحيط بها سور من الحجارة ، تعد من أعمال دمشق (١)
فتحها عمرو بن العاص سنة تسع عشر للهجرة (٢) وميناء بيروت كان يستقبل التجار ولكن
بأعداد لا تنافس موانئ يافا واللاذقية وطرابلس (٣) وفي الفترة الصليبية عرف عن المدينة منح
الإعفاء وإعطاء الامتيازات التجارية لتجار جنوة من اجل زيادة النشاط التجاري وتعويض
لتجارها عن ما قدموه من مساعدة للحملات الصليبية (٤)

٩ - يافا:

مدينة على ساحل البحر من أعمال فلسطين بين قيسارية وعكا (٥) عامرة عليها سور
محكم البناء ولها قلعة شاهقة في الهواء (٦) لم يكن لها دورا تجاري كبير مثلما كان لبقية
السواحل بسبب موقع ميناء المدينة حيث أن ميناء يافا صخري خطر كانت السفن القادمة إلى
الساحل الشامي تفضل النزول في غيره بسبب كثرة الحوادث التي تقع فيه فلم يستطع بذلك
منافسة ميناء عكا أو صور (٧) رغم ذلك ازدهرت فيه الأسواق العامرة وضم وكلاء التجار ، وقد
تميز بسعته وكبر حجمه حتى أصبح مكاناً لمرسى المراكب، الواردة الى فلسطين والمنطلقة
منها إلى كل البلاد (٨)

واضافة لتلك المدن والموانئ مدينة طرطوس التي هي بلد في الشام مشرف على
البحر قرب عكا (٩) عليها سوران من الحجارة وتشتمل على خيل ورجال وعدة وهي في غاية

(١) الإدريسي، نزهة المشتاق، ١١٩/١.

(٢) الواقدي ، فتوح الشام ، ٣٦/٢.

(٣) ابو الفداء، تقويم البلدان، ص ٢٣٩، ٢٤٧.

(٤) زابوروف، ميخائيل، الصليبيون في الشرق، ص ١٥٠.

(٥) الحموي ، معجم البلدان ، ٤٢٦/٥.

(٦) ابن شداد ، الأعلام الخطيرة ، ١٠٧/١.

(٧) رانسمان ، سنتيفن، تاريخ الحملات الصليبية، ٣ / ٤١٤.

(٨) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٢٣٩.

(٩) الحموي ، معجم البلدان ، ٣٠/٤.

العمارة والخصب ^(١) ومدينة حيفا وهي حصن على ساحل بحر الشام قرب يافا ^(٢) بها نخل وأشجار كثيرة وبها دار لصناعة السفن المسماة بالجودي ^(٣)

الخاتمة

- لعبت موانئ البحر المتوسط دوراً متميزاً في التجارة الداخلية والخارجية بفضل موقعها المتميز المطل على البحر المتوسط .
- ومما زاد في أهميتها ما اشتهرت به من تنوع في المجال الزراعي والصناعي ودورها الرائد في التجارة باعتبارها الوسيط التجاري للبضائع المختلفة ما بين الشرق والغرب .
- كما أن العامل السياسي الذي فرض على المنطقة جراء الغزو الصليبي على سواحل بلاد الشام جعل منها عامل ربط بصورة أعظم عما سبق فكانت تلعب دور الداعم والناقل لبضائع الطرفين كما كانت محطة للمدن الايطالية كالبندقية وجنوة وغيرها.
- لعبت موانئ بلاد الشام دوراً مهماً في الربط ما بين سواحل البحر المتوسط مستغلة الموقع المتميز لتلك الموانئ فكان أن قدر أن تلعب هذه السواحل دوراً في نقل المظاهر الحضارية إلى جانب التجارة بين سواحل البحر المتوسط المختلفة .

(١) الاضطخري ، المسالك والممالك ، ص ٤٧ .

(٢) الحموي ، معجم البلدان ، ٢/٣٣٢ .

(٣) خسرو ، سفر نامه ، ص ٥٣ .

The Ports of Levant Coasts and their Economic Importance During the Crusades Period in the Light of the Writings of Geographers, Arab and Muslim Travelers, and Crusader References

Lect.Dr.Qais Fathi Ahmed

Abstract

The biogeographical location of the cities of the Bilad-AL - Sham coast by land and sea and its important economic wealth has enabled it to take the lead in east-west trade, so its commercial centers played an important role in the activity during that period.

The location of the Levant, which is distinguished between east and west and its extension on the eastern coast of the Mediterranean and its proximity to ancient regions and civilizations, made it play an influential role in trade, especially foreign ones, thanks to its own ports with privileged locations with many good things, making it therefore a source of trade. It is an important transit for the transport of goods from east to west and vice versa.

The port cities of the eastern Mediterranean basin during the Crusades period played that prominent economic and commercial role because they fell on the coastal commercial line, which gave them the advantage of trading with other Mediterranean shores, whether the European, Maghreb or Egyptian coasts, and it was truly a prosperous factor for world trade due to its mediating role in trade.